الوحدة العربيـــة
فى مسيرتها النضالية والفكرية

الدكتور محمد أحمد خلف الله *

الوحدة — حين تكون مطلبا جماهيريا صادرا عن عقيدة قومية — فإنما تعنى القضاء على كل تجزئة ، والتخلص من كل الدول الإقليمية ، وقيام الدولة القومية التى تنطبق حدودها السياسية على حدودها القومية كل الانطباق، بحيث تصبح لتلك الدولة السيادة التامة على كل مافى الوطن القومى من موارد طبيعية وقوى بشرية تستثمرها أفضل استثمار لخير المواطنين جميعا .

والحركات القومية النضالية التى قامت ، وتقوم ، إنما تعمل جاهدة فى إيمان صادق ، وفى وعى تام ، من أجل تحقيق الدولة القومية .

والحركات القومية التى تناضل فى سبيل الوحدة لاتحقق أهدافها ولاتبلغ غاياتها ، إلا إذا استقطبت الجماهير ثم قادتها القيادة الرشيدة التى تمكنها من تخطى كل عقبة تقوم فى سبيلها .

إن قوة الجماهير هى السلاح الوحيد الذى تستثمره قوى النضال فى كسب المعركة .

إن هذه القوى إنما تواجه قوى عديدة تتمثل فى : جهاز الحكم فى الدول الإقليمية، الاستعمار ، الرجعية ، الانتهازيين ،وأصحاب المصالح الشخصية ، إلى غير ذلك من قوى ترى مصلحتها فى الإبقاء على الإقليمية ، ولن يكتب

(*) وكيل وزارة الثقافة سابقاً (جمهورية مصر العربية) .

لها النصر على هذه القوى إلا بالاعتماد على السلاح الوحيد الذى يحقق النصر وهو قوة الجماهير.

ومالم تستقطب قوى النضال الجماهير من حولها، ومالم تبصر قوى النضال الجماهيرى بمصلحتها وأنها فى تحقيق الدولة القومية ، فإن النتيجة معروفة .

تخسر معركتها ، وتذهب جهودها مع الريح .

والوحدة حين تكون مطلبا شعبيا صادرا عن وعى بالمصلحة المشتركة وليس عن عقيدة قومية ، فإنما تعنى روابط قانونية بين دول مختلفة من أجل تحقيق هذه المصلحة المشتركة .

والاتفاقات الدولية التى قامت ، وتقوم ، من أجل تحقيق المصالح المشتركة عديدة ومختلفة الأنواع ، ونرى من بينها :

الاتفاقات التى تقوم من أجل تحقيق مصالح حربية أو عسكرية مشتركة مثل حلف وارسو ، والحلف الأطلسى .

الاتفاقات التى تقوم من أجل تحقيق مصالح اقتصادية مشتركة مثل السوق الأوروبية المشتركة .

الاتفاقات التى تقوم من أجل تحقيق مصالح إقليمية مشتركة مثل ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية ، وميثاق جامعة الدول العربية .

والفرق بين النوعين من الوحدات إنما يتمثل أولاوقبل كل شىء فى فى الأساس الذى تقوم عليه الوحدة .

فالوحدة حين تستند إلى المصلحة المشتركة فإنما بقاؤها رهن ببقاء هذه المصلحة المشتركة. وذلك إنما يعنى أن هذه الوحدة تدور مع المصلحة المشتركة وجودا وعدما . فهى باقية مابقيت المصلحة المشتركة ، وهى مقضى عليها حين تتغير الأوضاع ولاتكون هناك مصلحة مشتركة .

والوحدة حين تستند إلى العقيدة القومية فإنما تدور مع القومية وجودا وليس عدما .

إن القومية — أية قومية — موجودة أبدا . إنها من صنع الحياة ولها تاريخ طويل ممتد ليس يعرف أحد مبدأه ولامنتهاه . وليس من حق إنسان مهما يكن شأنه أن يخرج عن قوميته أو يتجاهلها .

إنه قومى أراد أو لم يرد . لأنه منتسب حتما إلى الأمة التى ولد فيها ونشأ بين بنيها ، وليست له إرادة فى ذلك .

ولأن الوحدة القومية من صنع الحياة تظل دائما مطلبا أبدياً خالدا .

ولأن الوحدة المصلحية من صنع الإنسان ، وله إرادة فى وجودها والتخلص منها ، كانت دائما موقوتة ومحددة بزمن .

والنوعان من الوحدة مطروحان فى العالم العربى وبينها حوار عنيف:

مطروحان منذ نهاية الحرب العالمية الأولى . أما من قبل فلم تكن الوحدة هدفا فى الحركات النضالية العربية .

وأوضاع العالم العربى فى ذلك الوقت هى التى أملت على العرب الأهداف التى يجب السعى فى سبيل تحقيقها ، وهى التى دفعت بهم إلى الانصراف عن الهدف القومى الأصيل — هدف الوحدة، وتبنى أهداف أخرى هى المساواة ثم الحرية .

كانت هذه الأوضاع على ما يلى :

١ — أقاليم خارجة عن نطاق الخلافة العثمانية والاستعمار الغربى مثل المغرب الأقصى .

٢ — أقاليم تتبع الخلافة العثمانية اسما وتخضع للاستعمار الأوروبى فعلا مثل الجزائر ، تونس ، مصر ، عدن . .

٣ — أقاليم تخضع خضوعا فعليا للخلافة العثمانية ويتربص الاستعمار الغربى بها ليضع يده عليها ويخضعها لسلطانه مثل : العراق ، وسوريا الكبرى . (سوريا ولبنان وفلسطين والأردن) .

٤ — أقاليم تنظر إلى الخلافة العثمانية على أنها خلافة غير شرعية وتعاديها

مثل اليمن التى تدين بالمذهب الشيعى الزيدى ، وترى الخلافة فى العرب وفى قريش بصفة خاصة — لأن الأئمة من قريش .

ولم تكن خاضعة للاستعمار .

كانت أهداف النضال مختلفة :

ففى المغرب الأقصى كان النضال يستهدف المحافظة على الاستقلال وعدم الوقوع فى براثن الاستعمار الأوروبى أو الخلافة العثمانية .

واحتفظ المغرب الأقصى باستقلاله إلى أن كان الاستعمار الفرنسى له قبل الحرب العالمية الأولى بعامين تقريبا .

وفى الأقاليم التى كانت خاضعة للاستعمار فعلا وللخلافة العثمانية اسما ، كان النضال يستهدف التحرر من الاستعمار الغربى أولا وقبل كل شىء .

كانت الفكرة الإسلاميـــة الأساس فى هـــذا النضال من جهتين : الأولى ، أن المستعمرين غير مسلمين والفكرة الإسلامية قادرة على دفع الناس إلى النضال من أجل تحرير البلاد الإسلامية من سلطان غير المسلمين . والثانية ، أن الإسلام هو الرابطة التى لاتزال تربطهم بدار الخلافة وأنهم لايزالون يستمسكون بهذه الرابطة ويتخذون منها المنطلق إلى النضال .

هذا إلى جانب أن بعض قادة النضال ممن لهم الشأن الأعظم فى الحركات النضالية من أمثال جمال الدين الأفغانى إنما كانوا ينتمون إلى دولة غير عربية ، وكانوا يقودون النضال باسم الفكرة الإسلامية لا الفكرة العربية .

أما فى الأقاليم التى كانت تخضع خضوعا تاما للخلافة العثمانية فقد جرى الأمر على المطالبة بالإصلاح ، وبأن يتساوى العرب والأتراك فى الحقوق وفى الواجبات .

والمؤتمر الذى عقد فى باريس عام ١٩١٣ وحضره مندوبون عن هذه الأقاليم لم يتجاوز حدود المطالبة بالإصلاح ، وبأن تنال اللغة العربية ، والثقافة العربية ، حظها من الحياة وبخاصة فى معاهد التعليم .

وبقى لبنان بعيداً عن معترك الحياة النضالية مكتفيا بحظه من الحياة المغلقة ، و بموقفه الدينى من دار الخلافة .

أما الخليفة نفسه فقد أدرك خطر الفكرة القومية ، وتبين له أن فيها القضاء على دولته، ذلك لأن هذه الفكرة لم تظهر فى الأقاليم العربية الخاضعة لسلطانه فقط وإنما ظهرت أيضاً فى بلاد البلقان التى كانت خاضعة لسلطانه حينذاك .

كان موقفه من هذا الخطر دعوته إلى قومية عثمانية . قومية للعرب ، وللأتراك ولليونان ولشعوب البلقان ، يكون هؤلاء فيها على حد سواء .

لكن الفكرة لم تنجح لأنها فكرة ملفقة ، وليست تستند إلى أى مقوم من مقومات أى قومية فى العالم .

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى تبدلت الأوضاع بعض الشىء ، وتغيرت تبعا لذلك أهداف النضال فى الحركة القربية القومية .

نشطت الحركات القومية نشاطا ذاتيا فقد كانت الفكرة القومية تأخذ سبيلها إلى عقول المواطنين فى دار الخلافة ، وتدفع بهم إلى انتهاز فرصة الحرب هذه للعمل الجاد فى سبيل الحرية .

ودخل الاستعمار الغربى بثقله ، وشجع جميع الشعوب البلقانية والعربية على العمل فى سبيل تحقيق دولهم القومية . وقامت الثورة العربية بقيادة الشريف حسين من أجل ذلك .

لم يكن الاستعمار مخلصا فى دعوته هذه فإنما كان يشجع العرب لحسابهم فى الظاهر ولحسابه هو فى الحقيقة ، وكان يشجعهم على محاربة الخلافة للانتقام من الخليفة العثمانى الذى وقف مع الألمان وضد الحلفاء . كما كان يشجعهم لتحقيق حلمه القديم وهو الاستيلاء على تركة الرجل المريض ، الخلافة العثمانية .

واستطاع الاستعمار أن يحقق أطماعه ، وأن يضرب الثورة التى ساعدها أولا من حيث أنها تشكل العقبة الكبرى فى سبيل تحقيق الاستيلاء على تركة الرجل المريض .

وزاد من نشاط الحركة القومية فى ذلك الوقت أمران جديدان بالملاحظة .

أول الأمرين : أن الزعيم التركى كمال أتاتورك الذى أنقذ بلاده من هزيمة محققة وقادها إلى نصر مؤكد كان من المؤمنين بالفكرة القومية واتخاذها أساسا لقيام الدولة التركية الحديثة .

هذا الإيمان دفعه إلى أن يسلم للشعوب التى كانت خاضعة لتركيا بحقها فى بناء دولتها القومية — وكان هذا من العوامل الفعالة فى النشاط الحى الذى صنعه العرب آنذاك .

أما ثانى الأمرين فهو العمل الجرىء الذى قام به الاستعمار بعد استيلائه على تركة الرجل المريض .

لقد بالغ الاستعمار فى تجزئة الوطن العربى إلى وحدات صغرى ، وفعل ذلك لمصلحته هو ، وكيدا للأمة العربية ، وقضاء على الفكرة القومية .

ويصور أبو خلدون ساطع الحصرى هذا التصنيع الاستعمارى — وقد كان وزيراً عربيا معاصراً — فيقول :

لماذا انقسمت البلاد العربية وتجزأت إلى دول عديدة ؟ هل لوجود خلاف بين الأهالى من وجهة المصالح أو النزعات ؟

كلا . بل إنها انقسمت إلى دول عديدة بسبب اتفاق الدول الطامعة فيها .

إنها لم تنقسم مراعاة لمصالح الأهلين ، إنما انقسمت تنفيذاً لرغائب المحتلين الطامعين .

كانت فرنسا تسعى منذ قرون عديدة لبسط نفوذها وحكمها على سوريا ، وكانت انجلترا ترى من مصلحتها أن تدخل البصرة وبغداد تحت حكمها لإتمام سيطرتها على جميع الأبواب والطرق الموصلة إلى الهند .

وماكادت الحرب العظمى تبدأ إلا وشرع رجال الدول المتحالفة يقومون بمفاوضات سياسية لتقرير كيفية اقتسام ميراث الدولة العثمانية بينهم ، بعد القضاء عليها .

وركزت روسيا عندئذ مطالبها حول المضايق من جهة، وحول الأناضول من جهة أخرى ، وتركت البلاد العربية إلى فرنسا وانجترا تقتسمها كما تشاء على أن تكون مدينة القدس تابعة إلى إدارة دولية لما لها من قدسية وحرمة لدى المسيحيين جميعا .

واتفقت فرنسا وانجلترا بعد مفاوضات طويلة على :

١ ــ ترك الحجاز ، وسائر أقسام الجزيرة العربية ، خارجا عن مشروع الاقتسام .

٢ ــ تقسيم سائر الولايات العربية إلى أربع مناطق : تترك إحداها لفرنسا تتصرف بها كما تشاء ، وإحداها لانجلترا كذلك تتصرف بها كما تشاء .

وتنشأ فى إحداها إمارة أو إمارات عربية تكون تحت نفوذ بريطانيا ، كما تنشأ فى المنطقة الرابعة إمارة أو إمارات عربية تكون تحت نفوذ فرنسا .

عندما عقدت هذه الاتفاقية التى عرفت فيما بعد باسم اتفاقية سايكس بيكو ، بالنسبة إلى اسمى المندوبين اللذين تفاوضا فى شأنها كانت انجلترا قد أتمت احتلال جنوب العراق ، ثم أخذت تزحف نحو الشمال إلى أن احتلت ولاية الموصل .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كانت الجيوش البريطانية قد تقدمت من جهة العريش واحتلت فلسطين.

وكانت جيوش الثورة العربية قد تقدمت من الحجاز إلى بر الشام واحتلت دمشق ، ثم واصلت الزحف إلى أن احتلت حلب أيضاً .

وبعد الهدنة ، سمح القائد العام الجنرال أللنبى للجيوش الفرنسية باحتلال المنطقة الساحلية من سوريا .

انقسمت بذلك الولايات العربية الممتدة بين سواحل البحر المتوسط وبين سفوح جبال إيران إلى أربع مناطق عسكرية ، إحداها فى العراق ، وثلاث فى سوريا ولبنان وفلسطين .

وبعد مدة هاجم الفرنسيون سوريا الداخلية واستولوا عليها . وأخذوا يديرونها حسب ما تقتضيه مصالحهم .

وهذه الحقائق تظهر لنا بوضوح أكثر عندما نبحث عن أسباب تكوين مملكة الأردن .

إن أراضى المملكة المذكورة كانت فى العهد العثمانى متصرفية تابعة إلى ولاية سوريا — أى الشام .

ولكن فرنسا وانجلترا كانتا قد اتفقتا على تحديد نفوذهما بخط العرض الذى يمر جنوب جبل الدروز وحوران ، ولذلك عندما استولت فرنسا على أراضى الدولة السورية لم تحتل البلاد الكائنة جنوب الخط المذكور ، وتركت تقرير مصير هذا القسم من سوريا إلى انجلترا مراعاة لأحكام اتفاقاتهما السابقة .

وأما انجلترا فلم تشأ أن تحتل هذه المنطقة احتلالا مباشرا ، كما أنها لم تر من الحكمة إلحاقها بفلسطين أيضاً لأنها كانت مرتبطة فى فلسطين بوعد بلفور الشهير ، ولم تر لزوما لتشهيل نطاق الوعد المذكور إلى هذه المنطقة الداخليـة .

لهذه الأسباب العديدة ظلت منطقة شرق الأردن منفصلة عن سوريا وعن فلسطين فى وقت واحد ، فصارت إمارة خاضعة لانتداب انجلترا ، ثم تحولت إلى مملكة .

إن انفصال الأردن عن سائر البلاد العربية إنما يعود إلى الاتفاقات ، المعقودة بين فرنسا وانجلترا من ناحية ، وإلى الخطط السياسية التى سارت عليها انجلترا فى البلاد العربية من ناحية أخرى .

فلا تمت بأية صلة إلى منازع الأهلين ومصالح البلاد .

هذه العوامل التى زادت من فاعلية النشاط القومى هى التى دفعت إلى عقد مؤتمر لندن عام ١٩٢٢ . ذلك المؤتمر الذى عقد فى فندق هايد بارك ، وحضره ممثلون عن مختلف البلاد العربية .

والوثيقة التى بين أيدينا عن أعمال هذا المؤتمر غير منشورة فيما أظن ، ويملكها السيد إحسان الجابرى من ضمن ما يملك من الوثائق القومية العديدة . ومن هنا رأينا إثبات نصها ليدرك القارىء المضمون القومى الذى انتهى إليه المؤتمر ، وكيف أنه جاء على أساس من أن الوحدة العربية نوع من الارتباطات القانونية التى تحدد الحقوق والواجبات بين دول إقليمية ، وليس بين أقاليم فى دولة قومية واحدة .

تقول الوثيقة : الحالة التى عليها البلاد العربية قد ساقت الوفود العربية الموجودة فى لندن والمجتمعة إلى التفكير فى إيجاد الوسائل التى يمكن بواسطتها السعى وراء توحيد المساعى فى جميع البلدان العربية لهدف واحد .

وبعد المداولة فى الأمر قد تقرر ما يأتى :

١ ــ السعى بكل الوسائل الممكنة لنيل البلاد العربية استقلالها التام بلا وصاية ولاحماية .

٢ ــ البلاد العربية هى : الحجاز ، سورية ، فلسطين ، شرقى الأردن ، العراق ، نجد ، عسير ، حضرموت ، مسقط ، اليمن ، مصر ، طرابلس ، تونس ، المغرب ، الجزائر .

٣ ــ القصد من اتحاد البلاد العربية هو أن ترتبط باتفاقات تضمن لكل واحدة منها استقلالها الداخلى وحريتها بإدارتها .

وتجتمع بأمورها العامة فى مجلس اتحادى .

٤ ــ الوفود العربية تعتقد بأن الوسائل الموصلة لهذه الغاية على قسمين : داخلية وخارجية .

والوسائل الداخلية هى : بث الدعوة بين ملوك وأمراء العرب ودعوتهم للاتفاق والاتحاد .

وسعى الحجاز بأسرع ما يمكن لتحقيق هذه الغاية مع الإمام يحيى ، وإدريس ، وابن سعود .

والتأثير على الأمير عبد الله لتنشيط الأعمال الوطنية فى سوريا وفلسطين والتفاهم مع أهالى هذه البلاد .

ويسعى العراق بتحقيق الغاية الاتفاقية حسب هذا المنهاج مع نجد ، ومسقط .

والوسائل الخارجية هى : إيجاد مركز عام فى خارج البلاد العربية لبث الدعوة فى الممالك ذات العلاقة بتلك البلاد .

٥ — غاية الاتحاد تخليص البلاد العربية من الحكم الأجنبى ، والعمل على مقاومة وعد بلفور ، وبث الدعوة فى البلاد العربية لإفهام فوائد الاتحاد والتضامن .

٦ — يتعهد كل من ممثلى البلاد العربية بنشر هذه الفكرة فى بلاده ، واستعمال كل الوسائل الممكنة لتحقيق هذه الغاية ، وتأمين الاتصال والمراسلات بين الأجزاء العربية .

انتهى النص :

وبقيت فكرة الاتحاد هذه وحدها فى الميدان إلى أن كان مؤتمر آخر عقد فى عام ١٩٣٣ ودعت إليه جماعة قومية كانت تعرف باسم عصبة العمل القومى .

رسم هذا المؤتمر للأمة العربية هدفين قوميين ، ورسم فى الوقت ذاته الطريق الموصلة إلى تحقيق هذين الهدفين.

أما الهدفان فهما :

١ — سيادة العرب واستقلالهم المطلق .

٢ — الوحدة العربية الشاملة .

وأما الطرق الموصلة إلى تحقيق هذين الهدفين فلم تكن عملية بقدر ماكانت ثقافية . وهذا هو النص الذى قال به المؤتمر :

ولتحقيق هذين الهدفين لابد من القيام بنهضة عامة ، وهذه النهضة يتوقف نجاحها على تعاون العرب جميعا .

ونرى نحن أن أعمال المؤتمر الأول هى التى وضعت الأفكار الرئيسية التى قامت على أساس منها جامعة الدول العربية . وأن أعمال المؤتمر الثانى هى التى قام على أساس منهـــا حزب البعث ، وهى التى نمت وترعرعت وأينعت وكانت ثمارها الوحدة العربية التى يطالب بها الوحدويون حتى يومنا هذا .

كان شعار حزب البعث : أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة .

وجاء فى ميثاق هذا الحزب : إن العرب أمة واحدة لها حقها الطبيعى فى أن تحيا فى دولة واحدة ، وأن تكون حرة فى توجيه مقدراتها ، ولذا يجب تحرير الوطن العربى من الاستعمار بأشكاله المختلفة ، وتوحيده ، وبناء نهضته .

وإن الرابطة القومية هى الرابطة الوحيدة التى تكفل الانسجام بين المواطنين العرب وانصهارهم فى بوتقة واحدة .

ولذا يكافح العرب العصبيات : المذهبية ، والطائفية ، والقبلية ، والعرقية ، والإقليمية .

وقام حوار عنيف بين من يدعون للاتحاد ومن يدعون إلى الوحدة ، ولم يقف هذا الحوار إلى اليوم ، ولم يخفف من حدته قيام جامعة الدول العربية وقيام الاتحادات التى جاءت من بعد ، من أمثال :

الجمهورية العربية المتحدة — الاتحاد الهاشمى — اتحاد الدول العربية المتحدة — الوحدة الاتحادية الثلاثية — الاتفاق الثنائى بين مصر والعراق — اتفاق طرابلس بين مصر وليبيا والسودان — اتحاد الجمهوريات العربية .

لقد كانت هذه الأنواع جميعها متهمة عند الوحدويين . وكان الاتهام الأول الذى يوجه إليها أنها تثبيت للإقليمية وتمكين للانفصال ، وأنها

بذلك تحقق هدف الاستعمار من بقاء الأمة العربية مجزأة ، ومكونة من دول عديدة لها كيانات سياسية واقتصادية تحول بينها وبين الوحدة القومية التى تنشأ عنها الدولة الواحدة التى تكون لها السيادة التامة على الوطن العربى بكل ما فيه من موارد طبيعية وبكل من فيه من قوى بشرية .

إن أداة التقويم عند الوحدويين هى الأساس الذى تقوم عليه الصيغة الوحدوية أو الاتحـــادية . فإن كان هذا الأساس هو العقيدة القومية الداعية حتما إلى الوحدة فهو الأساس السليم . أما إن كان هذا الأساس مصلحة مشتركة وارتباطا قانونيا فإن الأساس غير سليم وما بنى عليه سينهار حتما : ومن هنا كان موقفهم المعادى لجامعة الدول العربية ، ولكل صيغة اتحادية .

وقبل أن نستعرض سويا بعض المواقف الجدلية التى يتحاورون فيها حول الوحدة والاتحاد نشير إلى حدثين هامين فرح بهما الوحدويون كثيراً ، وظنوا فيهما الخير كل الخير ، يوم وقوع كل منهما، هذان الحدثان هما :

ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ .

وإنشاء معهد الدراسات العربية .

كانت فرحتهم بالثورة عارمة ، وكان أملهم فيها قويا . وقد بنوا ذلك على ما يلى :

اولا : أن الذين قاموا بهذه الثورة من الضباط الذين شاركوا فى معركة فلسطين ، ومعنى ذلك أنهم من المؤمنين بالعقيدة القومية ومن المناضلين فى سبيلها .

إن هذا الموقف منهم يحسب لصالح القومية العربية من حيث أنهم سيقودون مصر حتما إلى المعارك القومية ، والمصريين حتما إلى النضال فى سبيل القومية .

ثانيا : أن هؤلاء الضباط قد أطاحوا بالملكية وأحلوا محلها نظاما جمهوريا. وأطاحوا بالعرش المصرى وهو من أقوى وأقدم العروش فى البلاد العربية :

ومعنى ذلك أن عقبة كبرى فى سبيل الوحدة العربية قد زالت . وأن مثالا قد قام ، وسوف يحتذى وينسج على منواله .

ثالثا : أن مصر ستصبح منذ اليوم قاعدة للنضال العربى ، وذلك فى حد ذاته مكسب عظيم الوحدة والوحدويين .

إن مصر عند الوحدويين هى قلب الوطن العربى ، وإن المشرق والمغرب العربيين هما الجناحان — ولاحياة للجناحين بدون القلب.

إن مصر عندهم تتقدم العالم العربى من حيث الكثرة العددية ، ومن حيث الحضارة والعمران . ومن هنا تكون أصلح الدول العربية لقيادة الحركة القومية وتحقيق الدولة العربية الواحدة .

وحين قامت الجمهورية العربية المتحدة اعتقدوا أنهم ماضون فى سبيل تحقيق الأهداف القومية وأنهم بالغون حتما غاياتهم ومحققون حتما أهدافهم .

وحين قام الاتحاد الهاشمى لم يعبأوا به ، ورأوا فيه مشروعا استعماريا . وجاء رد الفعل فى سرعة عاجلة من حيث أن العراق قام بثورته ، وأطاح بالملكية فيه ، وقضى على ذلك المشروع الاستعمارى ، ودعى دعوته الوحدوية بالانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة .

لكن عبد الكريم قاسم ضرب ضربته التى أيقظت الوحدويين من أحلامهم ، ودفعت بهم إلى التفكير جديا فى أن الثورة فى أى إقليم عربى لا تكون وحدوية إلا إذا كان منطلقها وحدويا . وأنها قد تكون عقبة كئود تمر فى سبيل الوحدة حين تنطلق من موقف إقليمى ، إنها فى هذه الحالة لاتتخطى بسهولة وتكون الحكومات غير الثورية أسهل منالا .

ثم حدث أن تحطم أمل الوحدويين بالحركة الانفصالية التى أعادت كلا من سوريا ومصر دولة بذاتها . لقد كانت كل واحدة منهما إقليما بمعنى أحد أجزاء الدولة ، وصارت كل واحدة منهما وبعد الانفصال إقليما مستقلا يمثل

دولة مستقلة لاتربطها بالأخرى إلا الروابط التى تربط كل الدول الإقليمية فى الوطن العربى .

أما الحدث الثانى وهو إنشاء معهد الدراسات العربية فلم يكن أسعد حظا من الحدث الأول .

كانت فكرة إنشاء هذا المعهد وليدة الظروف التى كانت تمر فيها الفكرة القومية آنذاك ، وكيف يستفيد الوحدويون من هذه الظروف ويدفعون بالوحدة خطوات إلى الأمام .

كانت جامعة الدول العربية تهاجم لأنها بطبيعة تكوينها وحسب ميثاقها عاجزة عن أن تمضى فى طريق الوحدة من حيث أن المضى فى هذه الطريق إنما يعنى القضاء على التجزئة ، وعلى الدول الإقليمية — الأمر الذى يعارضه الميثاق ويؤكد نقيضه .

وكانت الجامعة تهاجم من حيث أن قيامها قد صرف الكثيرين من المؤمنين بفكرة القومية العربية عن المضى فى الدعوة إلى القومية والكفاح فى سبيلها ، ظنا منهم أن الجامعة هى المتكفلة بهذا .

ورأى الوحدويون أن إنشاء معهد للدراسات العربية فى نطاق الجامعة يجنب الجامعة كل ما يؤخذ عليها .

إن هذا المعهد يستطيع — وهو فى نطاق الجامعة العربية — أن ينمى الفكرة الوحدوية ويقيمها على أساس علمى سليم . كما يستطيع أن يقدم إلى الأمانة العامة للجامعة ، وللدول العربية ، كل عام حصيلة علمية تساعد فى كافة المجالات .

وكانت حكومة مصر الثورة من أولى الحكومات التى يراها المفكرون فى إنشاء المعهد فى حاجة ماسة إلى مثل هذه المعلومات العلمية القادرة على توجيه القيادة القومية إلى الطريق الوحدوى السليم .

كان الذين يفكرون فى إنشاء المعهد فى ذلك الوقت ثلاثة نفر من القادة

القوميين هم المرحومون الدكتور السنهورى رئيس اللجنة الثقافية الدائمة بجامعة الدول العربية آنذاك ، والدكتور أحمد أمين مدير الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، والأستاذ أبوخلدون ساطع الحصرى المستشار الفنى فى اللجنة الثقافية الدائمة .

واستطاع الثلاثة أن يتقدموا بمذكرة لمجلس الجامعة الذى وافق بدوره على تحقيق الفكرة .

تحددت أهداف المعهد فى المذكرة على الوجه التالى :

اولا : إعداد شباب عربى مثقف ثقافة عربية عالية .

ثانيا : نشر الثقافة العربية عن طريق التدريس والتأليف والنشر ، والمحاضرات العامة .

ثالثا : إقامة فكرة القومية العربية على أسس علمية صحيحة .

رابعا : تكييف أسس الثقافة العربية بحيث تنتفع من تقدم المدنية الحديثة .

وكان هذا التحديد للأهداف مقصودا به أعضاء مجلس الجامعة الذين ينظرون فى أمر إنشاء هذا المعهد ، فقد صيغت الصياغة التى تساعد على استبعاد أى اعتراض يصدر عن أى واحد منهم .

إن الذى يعنينا فى هذا المقام هى الوسائل التى رآها المعهد جديرة بالاهتمام . وكلها فيما كنت أعلم وفيما تنص عليه الخطبة الافتتاحية ، إنما تدور حول تحقيق الوحدة العربية .

لقد كان الباعث على إنشاء المعهد هو كما ذكرنا تلافى قصور الجامعة من هذه الناحية ، ثم الرد على الوحدويين بأن جامعة الدول العربية إنما تعمل عن طريق المعهد على إرساء قواعد الوحدة العربية إرساء علميا محققاً للأهداف ولو على المدى الطويل .

أعلن ساطع الحصرى فى خطبة الافتتاح ما يلى :

إن أولى المهام التى سيتولاها هذا المعهد ، لتحقيق هذه الأغراض هو الدرس والبحث :

١ — درس الأحوال الراهنة فى مختلف أقطار العالم العربى ، من وجوه السياسة والإدارة والاقتصاد والتشريع والأدب درساً علمياً .

٢ — مقارنة هذه الأحوال مقارنة دقيقة لإظهار الفروق والمشابهات القائمة بين هذه الأقطار من الوجوه المذكورة .

٣ — بحث عوامل هذه الفروق والمشابهات ، واستكشاف الظروف التى أوجدتها .

٤ — تحرى الوسائل التى تساعد على إزالة الفروق وزيادة التقارب ، والتشابه بين الأقطار العربية .

كما أعلن أيضاً ما يلى :

نحن نعتبر الدراسات التى سيقوم بها الأساتذة أولا ، والطلبة ثانيا ، والمتخرجون أخيراً .. من أينع الثمرات المرجوة .

ولكنا ننتظر من أعمال المعهد ثمرة أخرى ، أهم وأسمى من كل ماذكرته آنفا ، ألاوهى : تنشيط الوعى القومى فى العالم العربى ، مع إشاعة الشعور بوحدة الأمة العربية وبث الإيمان بمستقبلها .

وأرجو ألا يفهم من كلامى هذا ، أننا سنلجأ إلى أساليب الدعاية والتبشير . وأؤكد — بعكس ذلك — بأننا سنبنى دورسنا ودراساتنا على أسس متينة من العلم الصحيح ، ولن نخرج عن نطاق الأبحاث العلمية فى وقت من الأوقات .

ولكننا نعتقد أن مجرد معرفة الحقائق — مع الاطلاع على الأسباب والمسببات — ستولد فى النفوس إيماناً راسخا بأن العرب أمة واحدة ،

على الرغم من تعدد دولها ، وبأنه لايمكن لهذه الأمة أن تنال المكانةالتى تستحقها ، حتى ولا أن تحافظ على كيانها — فى هذا العالم الملىء بالعواصف — طالما بقيت على ما هى عليه من التفرق والتبلبل ؟

إننا سنسعى إلى تقوية فكرة « القومية العربية » ولكننا سنفعل ذلك مستندين إلى الحقائق العلمية على الدوام .

إننا سنهتم بالأبحاث اهتماما بالغا ، لأننا لانرضى أن تكون القومية العربية فكرة غامضة .

نريدها فكرة واضحة فعالة ، تهدى العقول ، وتثير العواطف ، تشحذ الهمم ، وتدفع إلى العمل ، وتبعث الإيمان فى النفوس ؟

ولذلك قلت : إن أهم الثمرات التى نرجوها من أعمال هذا المعهد ومساعيه، هى تنشيط الوعى القومى فى العالم العربى مع إشاعة الشعور بوحدة الأمة العربية وبث الإيمان بمستقبلها .

ولست هنا بصدد تقييم أعمال هذا المعهد ، وهل حقق الثمرات المرجوة أولا ؟ فإنما أننا بصدد بيان أن المعهد قد أنشىء حين أنشىء ليكون أداة فعالة فى سبيل تحقيق الوحدة ، وأن الذين أنشأوه كانوا من الوحدويين الذين يرجون منه خيرا كبيراً للقومية العربية ولوحدة الأمة العربية .

وانصرف المعهد عن هذا الغرض الرئيسى ، وتحول إلى معهد دراسى كسكل معهد آخر ليس له طابع متميز من حيث معالجة القضايا القومية والاتجاه العلمى نحو تحقيق الوحدة العربية .

وتنكر له الوحدويون كما تنكروا للجامعة من قبل .

ومضت الحياة فى طريقها مستهدفة تحقيق الاتحاد لا الوحدة ، ومنطلقة من موقف إقليمى يتخذ من الاتحاد أداة لتحقيق مصالح مشتركة للدول الداخلة فى نطاق الاتحاد والتى ارتبطت مع غيرها بروابط قانونية .

ورأى الوحدويون ، كما رأى الاتحاديون أيضاً ، أن جميع هذه الصيغ

الاتحادية على كثرتها وتعددها قد فشلت . وأن الإقليمية هى التى ظلت ثابتة فى الميدان . فقاموا بعمليات تقييم انتهت بهم إلى مجموعة من الأفكار لابد من طرح بعضها فى هذا المقام .

قالوا :

محاولة جمع الكيانات السياسية العربية القائمة ، أو تجميعها ، أو تضامنها ، على مصلحة مشتركة بينها أو فى وحدة عمل تضمنها ، أو على اتفاقية توحد النظم ، والرتب ، والبرامج التعليمية ، والشهادات الدراسية ، والدرجات العلمية .

ليس طريقاً للوحدة .

إن طريق الوحدة هو صنع النضال القومى لكيان جديد بمحتوى اقتصادى اجتماعى سياسى جديد ، يمثل انتصاراً قوياً وقيما جديدة .

الوحدة ليست توحيدا للدول العربية القائمة ، لأنها خلق لدولة جديدة تقوم على أنقاض هذه الدول ، وتختلف اختلافا نوعيا عن أى دولة عربية من دول التجزئة — حتى ولوكانت سياستها وحدوية . مادامت بالجوهر والهوية والوجود دولة تجسم التجزئة وتعبر عن الإقليمية . ومادامت الوحدة بالنسبة لها مسألة سياسية لاقضية قومية . قضية مصير وهوية .

فتصوير جامعة الدول العربية مثلا على أنها صورة من صور الوحدة ، أو على أنها خطوة على طريقها ، أو على أنها واقع يمكن أن يتطور على طريق الوحدة بالاتفاقات ، هو تصوير خاطىء .

ولايختلف عن هذا التصوير فى شىء كثير كل مشروع يطرح ، وكل اتفاقية تعقد بين بعض الدول العربية وتأتى فى الشكل والمحتوى تكريسا لكيانات هذه الدول وحفاظا عليها حتى لوسميت مشاريع وحدوية .

فلا تكون الواقعة إدراكا علميا للواقع الإقليمى كعائق أمام الوحدة تجب إزالته .

ولاتكون التطورية دفعا بهذا الواقع فى خطوات مدروسة على طريق تغيـــيره ؛

وتتحول الوحدة بذلك إلى نقيضها تماما .

إلى لاوحدة .

° ° °

إن الكثير من الارتباطات ، والتساؤلات ، والنكسات ، التى تعانى منها حركة الوحدة العربية إنما تعود فى الأساس إلى العجز عن تحديد معالم طريق الوحدة ، وتحديد قواها العقلية تحديدا صارما .

° ° °

إن التجزئة كمشكلة تحتم أن تكون الثورة هى الطريق إلى الوحدة العربية .

° ° °

إن رفض التجزئة لايعنى تجاهلها فهى واقع .

وإدانة الإقليمية لا يعنى إنكارها فرواسبها تقذى عيوننا فى كل ساعة .

وهذا الواقع الذى نريد أن نخلص منه المستقبل العربى يحدد للثورة العربية نقطة البداية .

فهى لاتتم بالتمرد الطفولى ضد الدول الإقليمية ، ولكن بالبناء الواعى ، من الممكن إلى ما يجب أن يكون .

° ° °

ونصل فى نهاية المطاف إلى الصيغة التى يراها الوحدويون كفيلة بتحقيق الوحدة ، وقيام الدولة القومية التى تنطبق حدودها السياسية أو الدولية على حدودها القومية .

والصيغة التى يقترحها الوحدويون هى الصيغة التى أنشىء المعهد من أجل تحقيق جانب هام منها .

ونحن حين نطرح هذه الصيغة فى مقال تنشره مجلة المعهد فإنما نرجو أن يتنبه المعهد إلى الدور الهام الذى يجب أن يضطلع به فى تحقيق هذه الصيغة .

يرى الوحدويون أنه لا بد من :

١ ــ نظرية ثورية قومية .

تحدد للثورة القومية مبادئها ، وقيمها ، وأهدافها ، وأخلاقياتها .

٢ ــ قوى اجتماعية مناضلة .

تجسم الثورة إرادتها القومية ومصلحتها الإنسانية فى تغيير الواقع القائم ، وفى حل التناقضات .

وتجسم كذلك هدفها فى إعادة صنع الحياة من جديد تقدما وعدلا .

٣ ــ حركة نضالية منظمة .

تكون أداة الثورة وقواها فى انطلاقها على طريق التنمية .

تبقى بالفكر والعمل طليعة واعية مؤمنة .

لاتنحرف بمسئولياتها الطليعية ، ومهامها القيادية ، إلى سلطات ونفوذ ومكاسب ــ وإلا أصبحت الثورة وقواها أداة لها ولمصالحها ، وتتحول هذه الطليعة إلى فئة بيروقراطية ، أو إلى طبقة مستغلة متسلطة جديدة .

٤ ــ عمل ثورى متواصل .

يجسم التنفيذ الواعى لتخطيط عقائدى علمى . يحدد أهدافا مرحلية على طريق القومية ونحو أهدافها المتجددة .

ويشمل هذا التخطيط مجالات الحياة المادية ، واللامادية ، جميعها .

٥ ــ تقييم ثورى متواصل للعمل ، وللمناهج ، وللتجربة ، فى ضوء النظرية .

وللنظرية فى ضوء التجربة الحية : القومية والإنسانية .

كل ذلك على أساس من النقد ، والنقد الذاتى .

وباحترام حقيقى لإمكانات الإنســـان فى الإبداع والخلق ، تلك الإمكانات التى تصنع الحضارة وتحفز إلى التقدم .

هذه هى الصيغة التى يراها الوحدويون محققة للوحدة دون غيرها ، ولست أريد أن أكون معها أوضدها بقدر ماأريد القول بأن الذى دفع الوحدويين إلى هذه الصيغة هو عجز الصيغ الأخرى عن الثبات فى الميدان فضلا عن أن تكون السبيل إلى الوحدة .

لقد فشلت الصيغ الاتحادية كلها تقريبا . فشلت لأنها لم تصدر عن العقيدة القومية التى تجعل القضاء على التجزئة والتخلص من الإقليمية هو الهدف الرئيسى .

والقضاء على التجزئة والتخلص من الإقليمية لن يتم إلا فى نطاق الأعمال الثورية — أوهكذا يرى الوحدويون .

والأعمال الثورية يجب أن تستند إلى نظرية أوفلسفة تحدد للثورة المبادىء والأهداف والأخلاقيات .

والدراسات والبحوث الجادة التى يمكن أن يقوم بها المعهد هى الكفيلة بوضع النظرية ، وبتكوين الطلائع والقادة .

والله الموفق إلى الطريق المستقيم

• • •

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUT DE LA RECHERCHE ET DES ETUDES ARABES
عضو اتحاد الجامعات العربية